*البيئات التي نمت فيها قواعد البلاغة، وعملت على إحياء علومها*

*بحث فى دراسات بلاغيه*

إعداد أ/ شادية بيومي حامد

*قسم اللغة العربية*

*كلية اللغات – جامعة المدينة العالمية*

*شاه علم – ماليزيا*

*shadia@mediu.ws*

**خلاصة ـــ هذا البحث يبحث في البيئات التي نمت فيها قواعد البلاغة، وعملت على إحياء علومها**

**الكلمات المفتاحية : الشعر ، نفوس حائرة ، القرآن**

1. **المقدمة**

**الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، سوف نتحدث في هذا المقال عن البيئات التي نمت فيها قواعد البلاغة، وعملت على إحياء علومها**

1. **عنوان المقال**

**وقال الوليد بن المغيرة: "قد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه، ومبسوطه ومقبوضه، وما هو بشاعر، ولما سمع من النبي ** {ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ} **[النحل: 90] قال: "والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمغدق، وإن أسفله لمثمر، ما يقول هذا بشر".**

**ولكن تبقى نفوس حائرة يجتذبها ضلالها القديم، فكان القرآن أهم ما وجهوا إليه أسلحتهم، يحاولون النيل منه؛ إذ هو ركيزة هذا الدين، وقد وجدوا أن التهوين من شأن القرآن، وادعاء أنه في مقدورهم، يُعد أمضى الأسلحة التي توجه للطعن في هذا القرآن، فقالوا: لو نشاء لقلنا مثل هذا، إن هذا إلَّا أساطير الأولين، يريدون بذلك أن يطفئوا نور الله بأفواههم، والله مُتِم نوره ولو كره الكافرون.**

**وقد تحدى القرآن العرب قاطبةً أن يعارضوه، أو أن ينسجوا على منواله، وطاولهم في المعارضة وتنازل لهم عن التحدي بجميع القرآن، في قوله** {ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ} **[الطور: 34]، إلى التحدي بعشر سورٍ مثله، في قوله:** {ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ} **[هود: 13]، إلى التحدي بسورة واحدة، في قوله:** {ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄ ﰅ} **[البقرة:23- 24].**

**فكان عجزهم أشنع وأبشع، فسجل القرآن عليهم الهزيمة أبد الدهر، فلم يفعلوا ولن يفعلوا، ودحضت حجتهم، وظهر أمر الله وهم كارهون.**

**ولقد حدثنا التاريخ، أن من العرب من أوهم نفسه بمعارضة القرآن، وأن يأتي بكلام له في أسلوبه من السحر والروعة، مثلما للقرآن، ولكن التاريخ نفسه أخبرنا أن هذه المحاولات كانت مضحكة أخجلت هؤلاء أمام قومهم، فباءوا بغضب من الله وسخط من الناس، وانصرف الناس عن مثل هذه المحاولات، وأيقنوا بعجزهم؛ فآمنوا بربهم، والتفُّوا حول نبيهم، وأقبلوا على كتابهم، موقنين بأنه ليس من كلام البشر، ولكنه كلام خالق القوى والقدر** {ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ} **[المائدة: 48].**

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| **الله أكبر إن دين محمد** | **\*** | **وكتابه أهدى وأقوم قيلا** |
| **لا تذكروا الكتب السوالف عنده** | **\*** | **طلع الصباح فأطفئوا القنديلا** |

**انقضى عصر الرسول  وهذا الشعور بالعجز يملأ صدور العرب، ويرثه عنهم جيل بعد جيل إلى أن كان عصر الدولة العباسية، واختلط العرب بغيرهم من الأمم على اختلاف لغاتهم وثقافاتهم، وازداد هذا الاختلاط؛ الأمر الذي أدى إلى فساد الملكات، وضعف الذوق العربي، وخفاء بعض معاني القرآن على الكثير من المسلمين، وأصبحوا في حاجة إلى فهم بعض أساليب القرآن؛ فانطلقوا يسألون العلماء العارفين بلغة العرب وأساليبها، وبخاصة تلك التي يُشتبه فيها المسائل، وتحتاج إلى بيان يثلج صدورهم، ويُطمئن قلوبهم.**

**وقد مر بنا قصة أبي عبيدة معمر بن المثنى، مع هذا الرجل الذي جاء يسأل عن قول الله تعالى:** {ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ} **[الصافات: 65]، وذكر له أبو عبيدة أن ذاك جاء على غرار ما كان من العرب، وأنشد له بيتًا لامرئ القيس:**

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| **أيقتلني والمشرفي مضاجعي** | **\*** | **ومسنونة زرق كأنياب أغوال** |

**وهذا جعله يُفكر في تأليف كتابه: (مجاز القرآن)، وقد أراد أبو عبيدة بهذا أن يُبين أن القرآن جاء على سنن العرب في كلامهم، وأنه لا يشذُّ عن الأسلوب العربي الذي عرفوه، وكان كتاب أبي عبيدة هذا، هو بداية التأليف حول القرآن الكريم، وفك غامضه، وبيان ما حوى من أسرارٍ كان بها قمة الإعجاز البياني، وجاء بعده كثير من العلماء، وصاروا على هذا الطريق، وتوسعوا فيه، وأضافوا إليه، وأضحت هناك بيئة ثقافية لها طابعها واهتمامها الخاص، هذه البيئة أُطلق عليها بيئة الإعجاز القرآني، كما أُطلق على علمائها؛ علماء الإعجاز، وكان هدف هؤلاء هو الكشف عن معاني القرآن، وما غمض من عباراته، والدفاع ضد هؤلاء الطاغين الملحدين، بما ورد في القرآن الكريم عن المجاز، وبيان ما أضفاه المجاز في الآيات القرآنية من مظاهر الروعة والجمال.**

**وقد تمخضت هذه البيئة التي نمت فيها البلاغة، وتمخضت عن كتاب أبي عبيدة: (مجاز القرآن)، تمخض كل هذا عن كثير من المؤلفات التي حفظها الزمن ككتاب: (مجاز القرآن)، لأبي عبيدة الذي سبق أن ذكرناه، والذي سبقت الإشارة إليه، وكتاب: (تأويل مشكل القرآن)، لابن قتيبة، المتوفى سنة 276، و(النكت في إعجاز القرآن)، لعلي بن عيسى الرماني، المتوفى سنة 386، و(إعجاز القرآن)، للخطابي، المتوفى سنة 388، و(إعجاز القرآن)، للباقلاني، المتوفى سنة 403، و(تلخيص البيان في مجازات القرآن)، للشريف الرضي، المتوفى سنة 404، وغير هذه المؤلفات الكثيرة.**

**وكانت هذه الآثار والمؤلفات التي خلفتها هذه البيئة القرآنية -مع تخصصها في القرآن، والذود عنه- هي التي فتحت باب البحث البلاغي على مصراعيه، فقد اهتدى أصحابها إلى كثير من الأصول، والقضايا التي يبدأ منها البحث البلاغي، بل أصبحت هذه الأصول فيما بعدُ؛ القواعد البلاغية التي جدَّ من جاء بعدهم في جمعها، وحصرها، وتصنيفها، وترتيبها، ووضعها في قالب علميٍ خاص.**

**وهذا العرض السريع لهاتين البيئتين، يوضح بإجمال جهود العلماء الذين بذلوها في ميداني النقد الأدبي، والدراسات القرآنية، حتى أوائل القرن الخامس الهجري، وواضح من هذا العرض أيضًا، أن القرن الرابع الهجري، هو عصر الثراء العلمي؛ إذ فيه تقريبًا معظم المؤلفات التي اتُّخذت أساسًا للبلاغة العربية فيما بعد، كما أنه عصر الاختصاصيين الذين هجروا التعميم غير العلمي، واهتموا بمعالجة التفاصيل ونقد النصوص، وقد هيأت آثارهم التي سبقت الإشارة إليها السبيل لأصحاب العقول العظيمة بعد أن وقفوا عليها، ووعوها وعيًا تامًّا، وكان ذلك الوعي في منتصف القرن الخامس الهجري تقريبًا؛ حيث جاء الإمام عبد القاهر الجرجاني فدرس هذا التراث الضخم الذي خلفه السابقون، واستطاع أن يجمع بذهنه الثاقب وعقله المستنير، تلك الزهور المتناثرة هنا وهناك في بطون هذا التراث، وأن ينظم منها باقة بلاغية متكاملة في كتابيه المشهورين، اللذين سبق الإشارة إليهما، واللذين سيأتي الحديث عنهما بشيء من التفصيل؛ إبَّان حديثنا عن النظم، وازدهار الدراسات البلاغية.**

**و أتى بعد عبد القاهر، أبو يعقوب السكاكي، المتوفى سنة 626هـ، فوضع الفروق الدقيقة بين مسائل ومباحث علم البلاغة، وميز بعضها عن بعض تمييزًا تامًّا، وجعل لكل مبحث منها علمًا خاصًّا، وكان له من صنيع عبد القاهر الجرجاني، ما أوحى إليه هذا التحديد والتمييز، وأخذت البلاغة على يد السكاكي صورتها النهائية، بعد أن جعلها ثلاثة أصناف، كما سبق أن ذكرنا:**

**صنف يبحث فيه عن الهيئات والأحوال التي تطابق باللفظ جميع مقتضيات الأحوال، وهي علم المعاني، وصنف يبحث فيه عن الدلالة عن اللفظ وملزومه وغير ذلك مما يتصل بالدلالة، ويسمى هذا العلم بعلم البيان، وقد حدد السكاكي، مباحث هذا العلم في ثلاثة أصول: التشبيه، والاستعارة، والكناية.**

**وصنف ثالث: يبحث في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التنسيق، وهذه المحاسن وأقسامها، هو ما يعرف بعلم البديع، وقد ضم السكاكي هذه الأصناف الثلاثة في القسم الثالث، من كتابه: (مفتاح العلوم)، أما القسم الأول فجعله لعلم الصرف، والقسم الثاني جعله لعلم النحو، ووقفت بذلك البلاغة عند هذه الحدود التي انتهت إليها عند الإمام عبد القاهر الجرجاني.**

**ووقفت جهود العلماء عند التلخيص والعودة، إلى هذا التلخيص للشرح، وإلى هذا الشرح بشرح آخر، يُدعى حاشية، وقد يوضع على هذه الحاشية ملحوظات، تُدعى تقريرًا، ولا تتناول هذه الشروح المتراكب بعضها فوق بعض إلَّا مسائل لفظية، ومناقشات فلسفية منطقية لا غناء للبلاغة عنها أحيانًا.**

**توالى على: (مفتاح العلوم)، بالشرح كثير من العلماء، وشرحه قطب الدين محمود بن مسعود الشيرازي، وشمس الدين محمد بن مظفر، وناصر الدين الترمذي، وعماد الدين الكاشي، والخطيب القزويني، وسعد الدين التفتازاني، وسيد الشريف الجرجاني، وغير هؤلاء ممن اهتموا بالقسم الثالث، من: (المفتاح)؛ فقاموا بشرحه وتلخيصه، والتعليق عليه.**

**وقد حظي أحد هذه الشروح والتلخيصات، بأكثر مما حظي به: (المفتاح) نفسه، وهو تلخيص: (المفتاح)، للخطيب القزويني، المتوفى سنة 739، فشروح التلخيص ومختصراته تعدو كل حصر، ولم يرزق كتاب من الشهرة والحظوة لدى العلماء، ما رُزقه هذا التلخيص؛ حتى إن مؤلفه شرحه بشرح أسماه "إيضاح التلخيص"، وممن قاموا بشرح التلخيص عدا مؤلفه، شمس الدين الخلخال، في كتابه: (مفتاح تلخيص المفتاح)، وبهاء الدين السبكي، في كتابه: (عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح)، وسعد الدين التفتازاني، في كتابيه: (المختصر) و(المطول)، وعصام الدين إبراهيم بن محمد بن عرب شاه الإسفراييني، في كتابه: (الأطول)، وهو كاسم أطول من (مطول) السعد.**

**ومنهم ابن يعقوب المغربي، في كتاب: (مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح)، وأصبح تلخيص القزويني وشروحه، المادة الأساسية لتعليم البلاغة في كل البيئات المعنية بالعربية على اختلاف الأقطار، وتفاوت الأبصار.**

**وعلى الرغم من هذا، فقد ظلت فكرة الإمام عبد القاهر البيانية تعيش في عقول بعض العلماء، مؤكدين على هذا الاتجاه في دراسة البلاغة، ومسائلها، ونذكر من هؤلاء العلماء، كمال الدين الزملكاني، المتوفى سنة 651، في كتابه: (التبيان في علم البيان).**

**وفي العصر الحديث، وجدنا كثيرًا من المؤلفات البلاغية التي حرص أصحابها على البعد عن الجفاف الفلسفي والمنطقي، والخلافات التي وقعت بين البلاغيين، ومُلئت بها الشروح والحواشي، كما حرصوا على العودة بالدرس البلاغي إلى هدفه الأصيل، وغايته المنشودة؛ وهو تربية الذوق الأدبي، والإحساس بالجمال الأثري.**

**ومن هذه المؤلفات: كتب فضيلة الأستاذ الدكتور محمد بن محمد أبي موسى: (التصوير البياني)، و(دلالات التراكيب)، و(خصائص التراكيب)، و(الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم)، وكتاب: (البلاغة الواضحة)، لعلي الجاري، وكتب أستاذنا الفاضل: "بسيون فيود" في علم المعاني، والبيان، والبديع، وكتاب: (علوم البلاغة)، لأحمد المراغي، و(المنهاج الواضح)، لحامد عوني، و(جوهر البلاغة)، للسيد أحمد الهاشمي، وغيرها كثير.**

**المراجع والمصادر**

1. **القزويني ، زكريا بن محمد القزويني تحقيق: محمد السعدي فرهود ، (الإيضاح في علوم البلاغة) ، طبعة رقم1، سنة النشر: 2001 م**
2. **الجرجاني، عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، (دلائل الاعجاز) ، ط5، مكتبة الخانجي، 2004م.**
3. **أبو موسى، د. محمد محمد أبو موسى، (دلالات التراكيب دراسة بلاغية) ، القاهرة، مكتبة وهبة للطباعة والنشر والتوزيع، 1987م**
4. **المراغي، أحمد مصطفى المراغي، (تاريخ علوم البلاغة و التعريف برجالها) ، القاهرة، مكتبة و مطبعة مصطفى البابي، ط1، 1950م**
5. **فيود ، د. بسيوني عبد الفتاح فيود ، (علم البيان: دراسة تحليلية لمسائل البيان) ، القاهرة، مؤسسة المختار ، دار المعالم الثقافية، الإحساء ، ط 2، 1998 م**
6. **الخوارزمي ، الشيخ يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي الخوارزمي الملقب بسراج الدين السكاكي، (مفتاح العلوم) ، لبنان، مكتبة المقهى، نشر دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية ، 1987م**
7. **الشاطئ، عائشة بنت الشاطئ، (التفسير البياني) ، مكتبة المجلس، الطبعة الأولى، 1962م**
8. **فيود، د. بسيوني عبد الفتاح فيود، (علم البديع: دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع) ،القاهرة، مؤسسة المختار، 2004**
9. **الصعيدي، عبد المتعال الصعيدي، (البغية على الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة) ،مكتبة الآداب، 1999م**
10. **شاهين، كامل السيد شاهين، (اللباب في العروض و القافية) ،القاهرة، الهيئة العامة لشئون الأميرية، 1978م**
11. **القيرواني، ابن رشيق القيرواني، (العمدة في محاسن الشعر وآدابه) ،الناشر: دار الكتب العلمية، 2001م**
12. **أبو موسى، د. محمد محمد أبو موسى، (التصوير البياني) ،القاهرة، مكتبة وهبة للطباعة والنشر والتوزيع، 1997م**